أدونيس يرد:

الثقافة.. الجريمة.. التسلية

الصديق العزيز الدكتور سهيل ادريس،

تحيةً وودّة،

فوجئت بنشركَ في مجلّتك **الآداب** (آذار، نيسان ١٩٩٥) التي أكنُّ لها احتراماً كبيراً، والتي هي جزءٌ مضيءٌ في ذاكرتي الثقافيّة، ما سَمّيتَه بِـ«ثلاثة ردود على أدونيس»، مع أنّني لم أُفاجَأ بها هي نفسها، أو بأصحابها. فالحقّ أنّها لم تكن «ردوداً»، وإنما كانت تجريحاً وتخويناً. وهي، بوصفها كذلك، لا تنتمي إلى الثقافة، اختلافاً وحواراً، وإنما تنتمي، بالأحرى، إلى عالمٍ أساسُهُ الجريمة، ومدارُهُ التجريم.

أقول: فوجئتُ، لأنّك أنتَ نفسك صارمٌ في إدانتك النّقدَ الذي يكون «تجريحاً» و«إدانةً». وأذكّركَ هنا بقولك في هذا الصدّد: «فالنّقادُ هم، على الغالب، إمّا أدباء موتورون حاسدون، يُقبلون على الأثر في نيّتهم أن يحطّموه.. أو مدّاحون مُغالون.. أو أدباء يؤمنون بنظرة معيّنة محدودة يُريدون أن يُطبّقوا الأثر عليها، فإذا انطبق فهو الأثر الرّائع، وإذا حادَ كان تافِهاً» (**الآداب**، في عددها الخاصّ بالنّقد، يناير ١٩٦١). أليس في كلامكَ هنا ما ينطبق على هذه «الرّدود» وأصحابها؟ وكيف يكون الأمرُ، إذن، وهذه «الردّود» لا تنقد الأثر، وإنّما «تجرّم» الشخص نفسَه و«تخوّنه»؟

«الردود» الثلاثة عليَّ لا تنتمي إلى الثقافة، بل إلى الجريمة و«الآداب» تبنّتْ قاتِليَّ!

كنتَ في نَشْرِكَ هذه «الردّود» أيّها الصديق العزيز، كمن يحوّل مجلّته إلى محكمةٍ للتّفتيش، وكمن يجعل من منبرٍ ثقافيّ رعاه وسهرَ عليه، بتعبٍ ونضالٍ كبيرين، إلى مكانٍ تتحوّل فيه اللغةُ إلى مجزرةٍ، والكلماتُ إلى خناجر وقنابل.

وفي مثل هذه الحال لا يعود «المتَّهَمُ» قادراً على الدّفاع عن نفسه. فهي حالٌ تتجاوز حدودَ «الاتّهام» إلى «القَتْل». وليس «المتَّهم» هنا سُقراط لكي يحاورَ قاتليه، إضافةً إلى أنّ «المتَّهم» هو نفسه يكونُ قد «مات».

اسمحْ لي، إذن، أنا «قتيلك»، من حيث أنكَ «تَبَنَّيْت» «قاتِليَّ»، أنْ أوضحَ لك، شخصيًّا، ولقراء **الآداب** الأصْفياء النّابهين، بضعَ نقاطٍ لا تتعلّق بشخصي ـ فأنا أضع نفسي فوق الدفاع عنها، إزاء هذا «القتل» ـ وإنّما تتعلّقُ بالثقافة العربية، وبالوعي الفكريّ العربيّ، وبأخلاقيّة الكتابة.

لعلّك تلقّيت رسالة من الأستاذ الشاعر والروائي والباحث التونسي عبد الوهّاب المؤدّب، يخبرك فيها أنّه هو الذي كان مُستشارَ اليونيسكو في الإعداد لِـ«ندوة تونس» حول الأدب العربيّ، تنظيماً واختياراً للمدعوّين.. وأنني حضرتُ هذه الندوة بصفتي مدعوًّا كغيري.. ولم تكن لي أيّةُ علاقةٍ بها، على الإطلاق، من حيث التخطيطُ لها، أو تنظيمها. وهذا ما كنتُ أوضحته في بيانٍ نشرتْهُ، مشكورةً، جريدة **القدس**، التي كانتْ قد نشرَتِ المقالَ نفسه الذي نشرتْه **الآداب**. لكنّ الدكتورَ، الأكاديميّ، الأستاذ الجامعيّ، صاحب المقال [المقصود د. صبري حافظ ـ **الآداب**] لم يأبه لهذا التّوضيح. فليستْ صِحّة الوقائع ما يهمّه، كما بدا ذلك واضحاً، وإنما يهمّه الاتّهامُ والتّجريح. وهذه النيّة الاتهاميّة التّجريحيّة هي التي تحكمُ وتوجّه كلّ ما يقوله عنّي، مستنداً في ذلك إلى الاختلاق والتّزوير، وإلى تأويلاتٍ بالغة الفساد، إضافةً إلى حِقدٍ هائلٍ أحار في قُدْرة الإنسان على احتضانهِ و«التمتّع» به.

هذا المستوى من الفهم والوعي والأخلاق هو نفسه ما نجده لدى السيّد الدكتور في كلامه على ما كتبتُهُ عن محمد بن عبد الوهّاب والوهّابيّة. فهو، متابعةً لتقليدٍ ثقافيّ مشؤوم، سياسي ـ مَذْهبيّ، أو «فِرَقيّ»، بالمصطلح القديم، لا يُجيز الكلامَ أصلاً على «العدوّ الفكريّ»، ويقطع بعزله، ونَبْذه، أو قَتْلِه. ولئن جاز التحدّثُ عنه، فلا بُدّ مِن أن يُقْرَنَ اسمُهُ، كلّما ذُكِر، بعباراتٍ مثل: «الزنديق»، «المرتدّ»، «الشعوبيّ» «المبتدع»، «قبّحه الله»، و«نعوذ بالله منه ومن شُروره».

والويل، إذن، لمن يتلفّظ باسمه، فإنّه يَتَماهى معه، ويُصبح ملعوناً مثلَه. فكيف، إذن، تكونُ حال من يتحدّث عنه باحترامٍ، ودقّةٍ، وموضوعيّة؟

«العدوّ الفكري» في هذا التّقليد المشؤوم، يجب محوهُ أو حَرْقُه، بشكلٍ أو آخر.. وإذا تعذّر ذلك، فلا بدّ من تشويهه أو تأويل ما يقوله بطريقةٍ تُخرجه عن مقاصده الأصليّة، وتؤدّي إلى إخراجه من تراث الأمّة.

لهذه المُمَاهاةِ مع «الشرّ» أو ما يُظنّ أنه كذلك، ما يناقضُها، كما هي الحالُ في العقليّة السحريّة البدائيّة، وهي المُماهاةُ مع «الخير» أو ما يُظَنّ أنه كذلك. يكفي أن يكتبَ أحدهم عن «بطلٍ» أو «قضية» وطنيّة لكي تُماهيه بهما، ونُطلق عليه أوصافَ البطولة والوطنيّة.

ولعلّك تذكر، فأنت عارفٌ بذلك وشاهدٌ عليه، أنّه كان كافياً أن أهدي، مجرّدَ إهداء، قصيدة «مقدّمة لتاريخ ملوك الطوائف»، تحيةً وإعجاباً ووفاءً لِدَيْنٍ كريم تعرفه أنتَ شخصياً، إلى القائد الرّاحل جمال عبد الناصر، حتّى أصبح في نظر أعدائه، خصوصاً، «ناصريًّا» ومن دُعاةِ «النّاصريّة».

لعلّك تذكر أيضاً، في إطار هذه العقليّة السحريّة البدائيّة، أنّ المرحوم شفيق الكمالي، وزير الثقافة السّابق في العراق، كان يُجيبُ من يسأله حول منع كتب أدونيس من الدّخول إلى العراق: «لا تسألني، فلو كان اسمُ أدونيس على القرآن نفسه، لمنعناه من الدّخول». فأنا، في نظره، متماهٍ - إسماً وقولاً - مع «الشرّ» المطلق!

وقد دفعتُ الثمنَ غالياً، هنا وهنالك. ولستُ نادماً على ذلك. إنني، على العكس، أعْتَزُّ به.

* * *

ليست مقدّمتي لكتاب محمد بن عبد الوهّاب إلاّ فصلاً من كتاب **الثابت والمتحوّل** (الطبعة الجديدة، بأجزائها الأربعة، دار السّاقي، بيروت ١٩٩٤). وقد صدرتْ مع مختاراتٍ من كتاباته، عن دار العلم للملايين، ضمن مشروع عن مفكّري «عصر النهضة» (وأنا أوّل من نقدَ هذه التّسمية، ودعا إلى تغييرها)، سمّيناه «ديوان النهضة». وقد صدرتْ، إلى جانب هذا الكتاب، كتبٌ أخرى عن محمد عبده، والكواكبي، ورشيد رضا، وشوقي، والزّهاوي. وجميع مقدّماتي لهذه الكتب فصولٌ من كتاب **الثابت والمتحوّل**.

وبما أنني أحرص بدئيًّا، وأقصى الحرص، على الخروج من ذلك التّقليد الثقافي المذهبيّ المشؤوم، فقد قدّمتُ الوهّابيّة بموضوعيّةٍ كاملة، وشرحتُ موقفها من داخل - موضحاً أنّ ما أقوله هو ما يبدو لي مِنْ خَلَلِ النّظرة الوهّابيّة، مُمْعِناً في صِدْق الموضوعيّة وشفافيتها. وقد طرحتُ عليها، بعد عَرضِها، أسئلةً تُظهر مَدى الخللِ فيها، ومدَى انفصالها عن الواقع المعيشي الحيّ. لكنّ السيد الدكتور تعامى كليًّا عن هذه الأسئلة.

إلى أدونيس

عزيزي أدونيس،

تحية وشوقاً ومحبة،

أودُّ أن أحيّي أولاً قرارك بأن تردّ على منتقديك. فهذه «المعركة» التي كنتَ ومازلتَ مِحْوَراً أساسياً من محاورها، لا يجوز أن تبقى في منأى عنها طوال هذه الفترة. فابتعادُك عنها - «ترفُّعاً» أو «تجاهلاً» - خسارةٌ للحقيقة التي هي في النهاية نتيجةٌ لأفكار واجتهاداتٍ متعدّدة، أيّاً يكنْ خلافُنا مع هذه الأفكار والاجتهادات مادامتْ حريصةً على الموضوعيّة.

ومن هذا المنطلق عينه، رأيتُ مِنْ واجبي - و«تبياناً للحقيقة، واحتراماً لأصدقائها /أصدقائي» (كما تقول أنت) - أن أنشر عيّنةً من الردود على ما أثارتْه مقالتُك المنشورة في **الآداب** في العدد العاشر من السنة الماضية وما أثاره حضورُك لمؤتمر غرناطة. واسمحْ لي، يا عزيزي أدونيس، ألاّ أشاطرك الرأي في ما ذهبتَ إليه في رسالتك الطويلة، من أن تلك الردود ليستْ أهلاً باسمها، وليست أهلاً بالثقافة ولا حتى بالكتابة. فما تُراك كنت تريدنا أن نسمّيها: «تهجّمات»، «تجريحات»، «إهانات»؟ واسمحْ لي أيضاً أن أنعتَ هذه الردود - رغم خلافي مع بعض ما جاء بها، بل ورغم اعتراضي على الحدّة التي وسمتْ بعضها - بأنها جزء من المعارك الثقافية التي لا نخجل في **الآداب** مِنْ أن نفتح صدرنا لها.

لقد تمّ اصطفاءُ هذه الردود بوصفها أفضل ما وَرَدنا. بل لا نذيع سراً إذا قلنا إنّنا قد ضَرَبنا صَفْحاً عن عدد كبير من العبارات والجمل التي تحمل تهجّماً شخصياً عليك، وتحمّلْنا في ذلك غَضَبَ الكثيرين واتهامَنا بعضُهم بـ«المزاجيّة» و«الديكتاتوريّة»... والمرَض! ولكنّنا آلينا على أنفسنا أن نركب هذا المركب الوعر دون أن نخشى في ذلك لَوْمة لائم.

أنا لا «أتبنّى» جميعَ ما يُكتَبُ في **الآداب**، ولا «أتبنّى» ما كُتِبَ ضدّك أو جميعَ ما كُتب ضدّك، ولا أتبنّى - بالمنطق عينه - كُلَّ ما كتبتُهُ في **الآداب** وما تكتبه - مشكوراً - فيها. بل أنا أستغرب أن تتهمَني بالانحياز المهني إلى «خصومك» حين «أعطيتُهم صدرَ» المجلة (كيف تكون الصفحة ١٥ صدراً لمجلة، بالمناسبة؟ أليس أحرى بأن تسمّى بطناً؟!)، في حين أنّك تصدّرتَ حقاً عدداً سابقاً (الصفحة ٢ من العدد العاشر)، وتبوّأتَ «ذاكرة **الآداب**» قبل شهور... وأمّا الانحياز السياسي فذلك شأنٌ آخر، وأربأ بنفسي أن أخلط بين المستويين!

والغريب أيضاً أنّ واحداً من «خصومك» اتّهمنا بأننا نعاملك معاملة متميّزةً (ص ١٧ - هامش ٢، مِن العدد الماضي). فأيّكما نصدّق؟ وأيّكما نُغْضِب؟ وإلى أيّكما نتقرّب؟

عزيزي أدونيس،

المعارك الثقافية في وطننا، وفي كل مكان، قديمة وستستمر. آمل أن نبقى جزءاً منها، لأننا جزء من هذا الوطن. أعتذر عن كلّ ما قد تعتبره في ردودِ مَنْ «تبنيتُهُمْ» قدحاً شخصياً بكِ. وأتعهد أن أبقي صفحاتي - صدراً وبطناً - لكلّ الآراء الثقافية الرصينة، وأن أتدخّل - بوصفي صاحب المجلة - كلّما رأيتُ داعياً لذلك حرصاً على سلامة الحوار الثقافي واستقامته.

لك منّي كلّ الحب والصداقة والإعجاب، وإلى لقاء قريب.

سهيل ادريس

بهذه الموضوعيّة نفسها، عَرَضْتُ جميعَ الاتّجاهات التي درستُها في كتاب **الثابت والمتحوّل**. وفي هذه الموضوعيّة القائمة على احترام الآخر، وتقديم آرائه بدقّةٍ كاملة، ما يُوضح كيف أنّه كان لا بُدَّ مِن أن أظهرَ في نَظر من يتابعون ذلك التّقليد المشؤوم، متماهياً مع الذين أتحدّث عنهم، وأن أبدوَ كأنني أتبنّى آراءهم. غيرَ أنّ السّؤال هنا هو: لماذا لا يُماهيني هذا السّحر إلاّ مع ما يرى أنّه «الشرّ»؟ لماذا لا يُماهيني كذلك مع «الخير»؟ مع محمد عبده، أو الكواكبي، مثلاً؟ مع شُعراءَ مما قبل الإسلام، وما بعده، مثلاً آخر؟

وقد سبقَ أنْ رأى فِيَّ بعضُ مُمثلي هذه العقليّة، عند صدور كتاب **الثابت والمتحوّل**، «ملحداً»، و«قُرمطيًّا» و«شعوبيًّا» لمجرّد أنني عرضت بموضوعيّة ودقّةٍ، بعيداً عن التعصّب، وخارج الأفكار الموروثة والشائعة، لأفكار الملاحدة والقرامطة والشّعوبيين، تماماً كما فعلتُ، بالنسبة إلى الأفكار التي تناقضها وتحاربها.

وهذا الدكتور نفسه نَشَرَ مؤخّراً بالاشتراك مع شخصين آخرين، سوري وعراقي (...)، بياناً باللغة الفرنسيّة، بياناً ـ كتيّباً، يشكونني فيه للغرب (الصديق؟ العدوّ؟) وكأنّهم يقولون له: «لا يغرنّك أدونيس. إنّه «نازي» (بالحرف الواحد) ورئيس حزبه «شَنَقَهُ السّوريون» (بالحرف الواحد). وهو، إلى ذلك، «خمينيّ» و«وهّابيّ» و«أصوليّ ـ رجعيّ». وماذا يعني ذلك، عمليًّا، وفي الوضع الرّاهن الذي يعيشه العرب في فرنسا؟ إنه يَعني بوضوحٍ كامل: أيّها الفرنسيون، اعتقلوا أدونيس، أو اطردوه!

لقد فشلتْ فشلاً بائساً ومخزياً الحربُ التي شُنّت عليَّ، «حربُ الانتحال»؛ فلا بُدّ من شنّ حربٍ أخرى، ولتكن هذه المرّة، ودفعةً واحدة، «حرب الاستئصال». ولا أريد هنا أن أتساءل عمّن يقف وراء هذه الحروب (...) أترفّع عن ذلك، وأضربُ عنه صَفحاً.

أهذا فِكْرٌ أو نقد، أيّها الصّديق العزيز، أهذه ثقافة؟ أهؤلاء كتّاب؟

أيّدتُ الثورة الإيرانية لكونها حركة شعبيّة عامة، وانتقدتُها من حيث مضموناتها الدينيّة!

وآخذ مثلاً آخرَ وأخيراً: الثورة الإيرانيّة، هل كنتُ العربيَّ الوحيدَ الذي أيّدها؟ لا بأس، فلأكن الوحيد. نعم، لقد أيّدتُ هذه الثّورة ـ فاصِلاً ومميِّزاً بين كونها حركةً شعبيّة عامة لا مثيلَ لها في الحركات الثوريّة الحديثة، وكونهامضموناً فكريًّا. فهي من الناحية الأولى حركةٌ ضدّ النّظام الأمبراطوريّ، وضدّ التبعيّة للغرب الأوروبيّ ـ الأميركيّ. وفي هذا المستوى، وضمن حدوده، لا أزال أقف إلى جانبها. غير أنني، بالمقابل، ومن الناحية الثانية ـ وهذا ما يتعامى عنه أصحابُ تلك العقليّة المشؤومة ـ ولحظة تأييدي، كنتُ أوّلَ من انتقدَ هذه الثّورة، من حيث مضموناتُها الدينية، وبشكلٍ خاصّ إقامة الدّولة على الدّين، والوحدة بينهما، وكنتُ أول مَن حَذّر في مقالٍ بعنوان «الفقيه العسكري» من هذا الفقيه الذي يمكن أن يحلَّ محلَّ «الإيديولوجيّ العلمانيّ العسكريّ».

ومنذ أن بدأتْ هذه الثورةُ تتعثّر وتضطرب، وحلّت صفةُ «الخمينية» محلَّ صفة «الإيرانيّة»، تراجع المفكّرون والكتاب العرب الذين أيدّوها، وتبخّروا، ولم يَبْقَ إلاّ مؤيّدٌ واحدٌ هو «المجرم» أدونيس.

وها هو أدونيس، اليوم، ودون أن يتخلّى عن «خمينيتِه» يُصبح «وَهّابيًّا» ـ بل يُصبح «الوهّابيّ» الوحيد، تماماً كما هو «الخمينيّ» الوحيد!

* * *

هذه نماذج، أيها الصديق العزيز، لكي يتأكّدَ لك أنّ ما نسميه فكراً عند أصحاب تلك العقلية السحريّة البدائية، لا علاقة له بالفكر، وإنما هو نوعٌ من تمذهُبٍ أعمى، ليست الكلماتُ فيه إلاّ أدواتٍ للعنف والإرهاب والقَتْل: أبيض أو أسود.. معنا أو ضدّنا.. هذه الطريق أوْ لا طريق أخرى.. لا تدرّج.. لا إحساس بالفروقات.. لا فكر. وكلّنا نعلم أنّ من البداهة أن يؤيّد المفكّر ماركسَ، مثلاً، في بعض آرائه، دون أن يكون أو أن يُصبح ماركسياً، وأن يؤيّد الثورةَ الإيرانية، في بعض مطالبها وتوجّهاتها، دون أن يكون أو يصبح خمينيًّا. لكن اللغّة السائدة عندنا ليست لغة بحث وتساؤل ومعرفة، ليست لغة فكر، وإنما هي لغة تمذهبٍ أعمى.

* * *

ثمّ إنّ من يقرأ هذه «الردود» لا بدَّ من أن يتساءل: ما القضيّة التي يدافع عنها أصحابُها هؤلاء؟ أو ما تلك التي يحاربونها؟ هل يحاربون الوهّابيّة حقًّا، أو الخمينيّة؟ ولماذا إذن، لم يسبق لهم، في أيّ يوم، أن انتقدوا أيًّا منهما، أو واجهوها في أفكارها وممثّليها؟ هكذا تبقى المسألة في المستوى الهجائيّ ويصبح دورُ الوهابيّة والخمينيّة أن تكون وسيلةَ هجاء.

وهل هم حقًّا ضدّ الحزب الذي يحاربونني باسمه، أو يحاربونه باسمي؟ فلكي يكون المفكّر ضدّ شيءٍ، لا بدّ من أن يعرفه معرفةً عميقةً. والواقع أنّهم دون ذلك؛ فمعلوماتهم عنه أقلّ من بدائيّة، ولا تتعدّى مستوى: «زعيمُه شَنَقَهُ السّوريون».

العقليّة السحريّة تحولني إلى أعجوبة أجمع الانتماءاتِ كلّها على تناقضها!

هكذا، ومادمتُ، على الرّغم من الاختلاف أو الخلاف، أتعامَلُ مع كلّ فكرٍ أو كلّ شخصٍ أكتب عنه، بموضوعيّةٍ واحترام، فإنّ هذه العقلية السحرية تحوّلني إلى أعجوبةٍ من الأعاجيب: أجمع الانتماءاتِ كلّها، على تناقضها.

إنّ الفكر العربيّ، أيّها الصديق العزيز، لن يكون إذا تابع مسيرته هذه، مدعوماً ومحضوناً من وسائلنا الثقافية، إلاّ «السّحر العربيّ البدائيّ» الذي سيكون تسليةً أخرى، وسخريةً أخرى، يستمتع بهما العالمُ وهو يَفْتَح لمنجزاته الكبرى أبواب القرن الواحد والعشرين.

ربّما يتّضحُ لكَ الآنَ أن هذا الدكتور وأمثاله، لا يعرفون أن يكتبوا إلاّ وفقاً لتلك العقلية السحريّة البدائية: إمّا تشويهاً لمن يخالفهم، وإمّا تمجيداً لمن يتّفق معهم ولو كان في أسفل الأسافل. و«منهجهم» في ذلك: فلانٌ «رجعيّ» فالكتابة عنه، إذن «رجعيّة» إلاّ إذا كانت تشويهاً، ومَنْ يكتب عنه، لا بدّ أن يكون مثله «رجعيًّا»...وفلان «تقدمي» في نظرهم، فالكتابة عنه إذن «تقدميّة» إلا إذا كانتْ تشويهاً، وَمَنْ يكتبْ عنه لا بدّ أن يكون مثله «تقدمياً»؛ وليست «التقدمية» هنا في الواقع إلا قفا «الرّجعيّة».

ووفقاً لهذه العقلية، لا تجوز الكتابة عن محمد بن عبد الوهّاب، بل إنه لا يستحق حتّى أن يُذكر، فكيف يجوز، إذن، أن يتجرأ أحدهم

من عبد الوهّاب المؤدب

فاكس إلى السيد سهيل إدريس، سيدي الكريم

عندما قرأت المقال الذي نشره السيد حافظ صبري [المقصود: د. صبري حافظ ـ **الآداب**] عن أدونيس في مجلتكم أصابني الوجوم لما ورد فيه. فلو كانت وُجِّهَتْ مثل تلك الأقاويل اليّ شخصياً وبصورة مباشرة لكنت قابلتُها بالصمت والازدراء. ولكنّ بما أنني معنيّ بهذه المسألة ـ وإن كان غيابياً ـ أرى لزاماً عليّ أن أجيب.

لم يكن لأدونيس أيّ دور في تنظيم لقاء قرطاج (سبتمبر ١٩٩٤) وإنما حضره كضيف مشارك مثل سائر المشاركين. ويتعلق الأمر بلقاء أدبي عقدتْه اليونسكو بالمشاركة مع نادي القلم الدولي وكنت أنا الذي توليتُ المسؤولية في تصوّره، وقمت فيه بدور المستشار والخبير، ولذا فأنا الذي أتحمل مسؤولية الخيارات والتوجهات التي اعتُمِدَتْ أثناءه.

ولا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل هذه المسألة، فربما يتسنى لي، يوماً، أن أقوم بذلك في ظرف آخر. ولكن لا بدّ من أن أقول لكم بصراحة إنني لا أريد إضاعة الوقت في تبرير موقفي أو في تصحيح التحريفات المذهلة، والحقائق المزورة والزيف والأكاذيب التي تضمنها ذلك المقال.

فما راعني لذلك [كذا؟] هو لهجةُ الاتهام التي يستعملها صاحب المقال، وأسلوبه البوليسي، التفتيشي، الوشائي الذي يستند على حجج وأحكام مسبقة رغم أن الزمن قد عفا عليها، إلا أنها لا تزال رامية بجذورها في أذهان البعض، والهدف من ورائها هو الدعوة إلى سفك دم الآخر والتشهير به قصد اغتياله.

وكان من الحري بكم، بصفتكم مديراً للنشر، أن تتأكدوا من صحة المعلومات التي نشرتها مجلتكم في هذا الصدد. فذلك النص المليء بالأكاذيب والافتراء الفادح، لو كان نُشِرَ في بلد يحكمه القانون لكان تعرض كل من كاتبه وناشره إلى الملاحقة الجنائية. وإلا فسوف تعمّ الفوضى وقانون الغاب. هل هذا هو الذي تريدونه؟ إن أقل ما يمكن أن نقوم به هو أن نطرح هذا السؤال.

أما بالنسبة لصاحب المقال الذي يعيش في أوروبا ويعمل في مؤسسة جامعية تعلّم الحذر وتعتمد واجب التحقيق في صحة المصادر مبدأً منهجياً أساسياً، فأريد أن ألفت نظره إلى أن خطابه ذلك ينمّ عن شعور بالحقد. كما أريد أن أحيله على ما قاله الفيلسوف نيتشه بشأن مثل هذه المواقف، عساه أن يعي أنه هو الذي يحمل في واقع الأمر، أعراضَ انحطاط حضارة وانهيارها الأخلاقي.

والغريب في الأمر هو أن صاحب المقال لا يدرك أنه يتجول في هذا العالم الرحب وهو لا يزال يحمل فوق ظهره محبسه العتيق، كما يحمل الحلزون قوقعته.

وأنا أطلب منكم أن تنشروا هذا التوضيح رداً على ذلك الخطاب الذي يتصف بالدناءة وروح التدخل البوليسي والنميمة والأكاذيب التي يراد تحويلها إلى حجج، وهذه كلها أساليب ترمي إلى حفز إرادة القتل القابعة في غريزة التجمع، أي في أبشع شكل من أشكال العمى الذي يغشى عيونَ الأغلبية.

باريس

تعليق الآداب

سيدي الكريم،

١ ـ إنّ اللهجة التي كتبتَ بها تعليقك على مقال د. صبري حافظ ليستْ، على ما نعتقد، من العلمية في شيء. فإذا كان في مقال «حافظ» ما تصفه بأنّه «أكاذيب»، فإنّ كلمتك لا تخلو من القدْح الشخصيّ! ثم إنّها لا تقدِّم أيَّ دَحْض لـ«مزاعم» حافظ، ولا تحمل ـ بالتالي ـ أيَّ قدرٍ من الإقناع.

٢ ـ لا نعتقد أنّ ممّا يشرِّف كاتباً عربياً أن يتحمَّلَ ـ كما فعلت ـ مسؤولية تنظيم ندوة تدعو كاتبيْن إسرائيلياً ويهودياً كندياً (ومغمورين أيضاً) ليس في مواقفهما المعلنة ما يشكّك بشرعيّة «إسرائيل»... في وقتٍ تحجب الدعوة عن كتّاب عرب أمثال عبد الرحمن منيف وفؤاد التكرلي وعبد الرحمن الربيعي وفيصل درّاج ممّن يمثّلون وجهة نظر قطاعٍ واسع من المثقفين العرب.

٣ ـ من المؤسف أننا نعيش في بلدٍ تسوده «الفوضى» ويسوده «قانون الغاب». ونحن نغبطك على إقامتك في بلدٍ «القانون» الذي لا يعرف تمييزاً عنصرياً ضد العمال العرب (بخاصة) ولم يسبقْ أن احتلّ بلادنا وبلادكم «الأصليّة» وطبّقَ عليها قوانينَهُ العصريّة الرفيعة. وإلى أن يسودَ حكمُ القانون في بلادنا، سنبقى ـ كناشرين ـ نرتعُ بفوضانا!

سهيل إدريس

بيروت

وينظر إليه وإلى ما يمثّله، بجهدٍ وترصنٍ واحترام؟ لن يكونَ ذلك إلا خرقاً لتلك «التقدّمية» يتماهَى مع «الرجعيّة» نفسها. إنّ مثل هذا الموقف لا يكشف وحسب عن غياب الهاجس المعرفي عند أصحابه، وإنما يكشف كذلك عن انهيار الأخلاق والقيم والثّقافة.

إنّ محمد بن عبد الوهّاب، مهما كانت أفكارُه، ومهما كانَ الرأي فيها، أكثر من مجرّدِ داعية. إنه تيّارٌ ـ امتدادٌ لفكر سَلفيّ ـ أصوليّ أسّسَ له ابنُ تيميّة... وهو التيّارُ الإسلاميّ الغالب، اليوم، إن شئنا المعرفة والموضوعيّة، وله، عدا هذا الجانب النّظريّ ـ المعتقديّ، حضورٌ قويّ، وفَعّالٌ، ومنظّم، في مختلف أنحاء العالم الإسلاميّ؛ ونبذُهُ، أو إنكارهُ، لا يغيّران من الأمر شيئاً وإنما يشيران إلى ضحالة النابذين، وإلى جهلهم أو خوفهم، وإلى انحيازهم الإيديولوجيّ المسكين والأعمى.

الموقف الطبيعي الصحيح، بالنسبة إليّ، هو دراسة هذا التيّار، ودراسة ممثليه، بشكلٍ واعٍ، وعلميّ، من داخلِ أصولهِ ومبادئه ومقدّماتهِ المعرفية، لكي نَكْتَنه حقًّا، واقع ثقافتنا، وواقع مجتمعاتنا، ولكي نفهمَ الإسلامَ في مختلف تأويلاته، ولكي نعرفَ، من ثمَّ، كيف نبني فكراً جديداً، ومجتمعاً جديداً.

أفلا يستطيع المفكر العربيّ، إذن، أن يتحدّث عن «عدوّه» الفكري، أو المختلف عنه، إلاّ بتشويهه، أو نبذه، أو قتله؟ ما أشدّ، إذن، بؤس الفكر العربي، وما أشدّ بؤس العرب بهذا الفكر!

لو راجعتَ، أيّها الصديق العزيز، مجلات العالم كلّه، لما رأيت كتّاباً يعامل بعضُهم بعضاً بمثل تلك العقليّة المتمثّلة في تلك التي سميّتها «ردوداً» وأفسحت لها صدرَ مجلّتك. أقول: لا نرى مثل هذه العقليّة ومثلَ هذا التّعامل إلاّ في البلدان التي ليست لها ثقافة وتقاليد ثقافية عريقة، أو في بعض البلدان التي أعمتها الصراعاتُ الإيديولوجية، والصراعاتُ الديكتاتورية، على السّلطة خصوصاً، والتي لا تكون وسائلها الثقافية ـ الإعلامية، إلاّ صورةً عنها ـ تزويراً ، وتشويهاً، وابتذالاً.

لهذا، واحتراماً لتاريخ الثقافة العربية، وللّغةِ العربية، لا أقدر أن أدرجَ هذه «الردّود» في إطار الثقافة، والحوار الثقافيّ. فلست أرى فيها إلا ظاهرةً «نفسيّة». وهي بوصفها كذلك، ليست إلاّ «تَنفيساً» عبر شخصٍ يُتّخذُ «كبش فداء» وتُلقى عليه جميعُ الخيبات والإحباطات والأخطاء، وتُنسب إليه جميعُ المخازي، بحيث يُخيّل أن الخلاص منه هو وحده الخلاص من جميع الكوارث والهزائم، وأنّ انتصار الأمّة لا يتمّ إلاّ بقتله ومحْوهِ من الوجود.

هذا عدا أنني أعلم علمَ اليقين أنّ وراءَ هذه «الردود» دوافعَ أُخرى أترفّعُ على الخوضِ فيها.

* * *

يعزّيك أحياناً، ولو سلبيًّا، أن يكتب عنك بعضهم ناظراً إليك كما لو أنّك دميةٌ، أو ملكٌ خاصّ. يعزّيك هذا خصوصاً عندما تتذكر قولاً قديماً: «أن تكون ملكاً للسان أحدهم أمرٌ يعني أنّك تملك أفضلَ جزءٍ من روحه»، وتقول: ليكتبوا، إذن، ما يشاؤون ـ فأنا عيونُهم وأيديهم، وأنا سهرهم وشغلهم الشاغل، وأنا أملك أفضلَ ما فيهم ـ كأنني أجري في دمهم، وكأنّني نبضهُم الحيّ.

ثمة سوء نيّة وضغينة وتفاهة عند كلّ من يكتب ضدّي!

واسمحْ لي هنا، أيّها الصديق العزيز، أن أستطرد فأشير إلى أنّ هناك مستوىً من سوء النيّة عند كلّ من يكتبون ضدّي، ومستوىً من الضغينة والتفاهة، أحارُ في تعليلهما. فكلّ ما أفعله، مثلاً، وكلّ ما أكتبه هو، في زعمهم، من أجل الحصول على جائزة نوبل. وهو زعم بائسٌ ومهينٌ لهم، وحدهم، لو يعلمون، ولا يمسّني، شخصياً، في أيّ شيء. ولو كان مثلُ هذا الذي يزعمونه عنّي مفيداً في هذا الحصول، لما كان هناك أيّ دَورٍ، على الإطلاق، لواحدٍ مثلي، ولكانت هناك لائحةٌ طويلة من العرب أنفسهم، ومن غير العرب، يتقدّمونني بأشواطٍ في هذا الميدان، هيهات أن أكون فيها منافِساً لأيّ منهم، بل إنني لا أُذْكَرُ أبداً بالقياس إليهم ـ خصوصاً أنني وحيدٌ، ليس ورائي دولةٌ، ولا حزبٌ، ولا طائفةٌ، ولا جماعة، ولا اتحاد، وما أسعدني بهذه الوحدة!

وهذا نفسه يزيدنيْ اعتزازاً وفخراً بأصدقائي المنتشرين في أنحاء الأرض العربيّة، وخارجها، الذين يجمعني بهم، على الرّغم من الاختلاف والبعد، صدقُ البحث، وموضوعيّةُ النّظر، وشجاعةُ الموقف، واحترامُ الإنسان، والوقوفُ دائماً إلى جانب الحريّة، والدّفاع عن حقوق الإنسان وعن الكرامة البشرية. ويزيدني كذلك اعتزازاً وفخراً بهذه القوة المعنويّة العالية التي يمثلها هؤلاء الأصدقاء، المفكّرون والكتاب، في مختلف اتجاهاتهم، قريبين أو بعيدين. فلقد برهنتْ هذه القوّةُ، على الرغم من أزمنة الانهيار، أنّها القوّة التي لا تنخدع بالتزوير والضّجيج الذي يرافقه، وأنّها الضّمير الحيُّ السّاهر. إنّها بما تكتنزه وتصدر عنه قوّةٌ لا تُغْلبُ أبداً. ومن هذه القوّة بالضبط أستمدّ قوّتي.

إن الكلام على جائزة نوبل في الوسط الثقافي العربيّ، وكما يتجلّى في وسائل الإعلام، عارٌ على الثقافة العربيّة، من حيث مستواه المعرفيّ والأخلاقيّ؛ فهو يعطي عن هذه الثقافة صورةً صغيرةً حتّى التّقزّم.. عدا أنه يُفصح عن ذهنيّة بائسةٍ، وعن جَهل كاملٍ بطبيعة الأشياء؛ إضافةً إلى أنّه تحقيرٌ للبشر، وللقضايا، لا يليق بالمفكّر أو الكاتب، ولا يليق بالثقافة. وهذا كلّه يؤكّد أنّ الأفكار، مهما كانت عظيمةً، تصغر حين تمرّ في العقول الصغيرة.

أحييك، أيها الصديق العزيز، أملاً أن تنشر هذه الرسالة في أوّل عددٍ يصدر من مجلتك ـ مجلتنا.

ولك تقديري الكبير، ومودّتي الدائمة.

باريس في ٢٥ نيسان ١٩٩٥

أدونيس